

الحذاء الجديد

لَمْ يَدْرِ أَيُّ فَرْحٍ عَظِيمٍ سَيَمْلَأُ جَوَانِحَهُ بَعْدَ قَلِيلٍ، عِنْدَمَا يَنْتَعِلَ الْحِذَاءَ الْجَدِيدَ. كَانَ مَرَارًا يَتَخَيَّلُ بَأَنَّهُ يَنْتَعِلُهُ، لَوْلَا أَنَّ رِجْلَيْهِ اللَّيِّتَيْنِ كَانَتَا تَتَضَايَقَانِ مِنْ بَعْضِ الْحُصَى تَذَكُّرَهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَنْتَعِلْهُ بَعْدُ، وَأَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَدْخِرَ كُلَّ مَا فِي وَسْعِهِ لِيَحْصُلَ عَلَى حِذَاءٍ جَدِيدٍ.

إِنَّهُ إِذَا كَانَ أَمَامَ الْوَاجِهَةِ الرَّجَاجِيَّةِ، وَعَيْنَاهُ عَلَى حِذَائِهِ الْمُفَضَّلِ، يَتَحَسَّسُ الدَّرَاهِمَ الَّتِي فِي جَيْبِهِ، لِيَتَيَقَّنَ مِنْ جَدِيدِ بَأَنَّهُ سَيَمْتَلِكُ الْحِذَاءَ، وَلِيَتَأَكَّدَ أَكْثَرَ، دَخَلَ إِلَى الدُّكَانِ يَطْلُبُ الْحِذَاءَ، وَعِنْدَمَا سَأَلَهُ صَاحِبُ الْأَحْذِيَّةِ عَنْ مَقَاسِهِ، لَمْ يَجِدْ جَوَابًا، غَيْرَ أَنَّ صَاحِبَ الْأَحْذِيَّةِ عِنْدَمَا أَلْقَى بِبَصَرِهِ عَلَى رِجْلَيْهِ أَدْرَكَ بِأَنَّ مَقَاسَهُ وَاحِدٌ وَأَرْبَعُونَ، فَأَخْرَجَ لَهُ حِذَاءً طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَنْتَعِلَهُ، وَمَسَحَ هُوَ بِيَدِهِ قَدَمَيْهِ مِنَ التُّرَابِ قَبْلَ أَنْ يُوَلِّجَ الْقَدَمَ الْيُمْنَى، وَتَطَلَّعَ إِلَى صَاحِبِ الْأَحْذِيَّةِ، وَهُوَ يُحَرِّكُ قَدَمَهُ فِي الْحِذَاءِ، فَأَشَارَ لَهُ بِأَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْمِرْآةِ الَّتِي أَمَامَهُ، فَتَنَظَّرَ إِلَيْهَا، وَهُوَ لَا يُصَدِّقُ عَيْنَيْهِ بِأَنَّ بِقَدَمِهِ حِذَاءً جَدِيدًا.

وَدَاهِمَهُ شُعُورُ الْفَرَحِ وَهُوَ يَتَخَيَّلُ حِذَاءَهُ الْجَدِيدَ، وَغَرِقَ فِي الْبَهْجَةِ جَارِفَ كَادَ يُنْسِيهِ أَنْ يَدْفَعَ الدَّرَاهِمَ لِصَاحِبِهَا.. وَعِنْدَمَا وَدَّعَ صَاحِبَ الْأَحْذِيَّةِ، اخْتَضَنَ حِذَاءَهُ، وَأَنْطَلَقَ مُسْرِعًا نَحْوَ الْبَيْتِ لِيَنْتَعِلَهُ.

مَا أَجْمَلَ أَنْ يَنْتَعِلَ الْمَرْءُ حِذَاءَ جَدِيدًا، وَيَخْرُجَ هُوَ الْآخِرُ إِلَى الشَّارِعِ مِنْ غَيْرِ حَاجِلٍ، وَأَنْ يَتَلَدَّدَ النُّعُومَةُ الَّتِي تُدْعِدُّ بِاطْنِ الرَّجُلِ... وَأَلْقَى نَظْرَاتٍ خَاطِفَةً عَلَى الْمَارَّةِ مِنْ حَوْلِهِ، وَهُمْ يَمْشُونَ الْهُوْنَى، وَبَرِيقُ أَحْذِيَّتِهِمْ يَنْتَقِلُ إِلَى وُجُوهِهِمْ. سَيَكُونُ بَيْنَهُمْ بَعْدَ قَلِيلٍ وَسَيَرْفَعُ رَأْسُهُ عَالِيًا، وَلَنْ يُحْسِنَ بِالْحُصَى الَّتِي تُعَاكِسُ قَدَمَيْهِ، وَلَا الْمِسْمَارَ الصَّغِيرَ بِقَدَمِهِ الْيُسْرَى.

وَوَصَلَ الزُّقَاقَ الَّذِي يَسْكُنُهُ وَهُوَ لَا يُصَدِّقُ بَأَنَّهُ يَمْتَلِكُ، كَالْآخَرِينَ، حِذَاءَ جَدِيدًا.. وَقَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الْبَيْتَ تَوَقَّفَ عِنْدَ الدُّكَانِ كَعَادَتِهِ، لِيَشْتَرِيَ عِشَاءَهُ: غُلْبَةً سَمَكٍ، وَنِصْفَ خُبْزَةٍ، وَقَلِيلًا مِنَ السُّكَّرِ وَالشَّايِ..

سَيَضَعُ ذَلِكَ بِالْبَيْتِ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ بِحِذَائِهِ إِلَى الشَّارِعِ..

وَسَأَلَهُ صَاحِبُ الدُّكَانِ: مَاذَا تَحْمِلُ بَيْنَ يَدَيْكَ يَا عَبَّاسُ؟

فَأَجَابَهُ وَبَرِيقُ عَيْنَيْهِ يَلْمَعُ كَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يُشْرِكَهُ فَرَحُهُ: أَنْظُرْ.... إِنَّهُ حِذَاءُ جَدِيدٌ.... وَتَسَلَّمَهُ صَاحِبُ الدُّكَانِ مِنْهُ، وَتَأَمَّلَهُ قَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَقُولَ: نَحْدُ الْمَالِ لَتَشْتَرِيَ الْحِذَاءَ، وَلَا نَحْدَهُ لَتُسَدِّدَ مَا عَلَيْكَ مِنْ ذَيْنَ...

وَعَلَتْ وَجْهَهُ حُمْرَةُ الْحُجَلِ، إِنَّهُ لَا يَجِدُ مَا يَقُولُ... وَتَنَحَنَحَ... وَتَلَعَنَ لَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئًا.... وَوَضَعَ صَاحِبُ الدُّكَانِ الْحِذَاءَ فِي الدَّخْلِ، وَهُوَ يَرْجِعُ إِلَى زَبُونٍ كَانَ يَطْلُبُ مِنْهُ بَعْضَ الْحَاجِيَّاتِ.... وَانْتَظَرَهُ عَبَّاسٌ إِلَى أَنْ انْتَهَى، ثُمَّ سَأَلَهُ: كَيْفَ وَجَدْتَ الْحِذَاءَ؟ أَلَيْسَ جَمِيلًا...؟ وَأَجَابَهُ صَاحِبُ الدُّكَانِ:

أَتَسْتَهْزِئُ بِي...؟ إِيَّيْ أَجِدُكَ مَغْتَوًّا...؟ لَا تَقْدِرُ مَنْ يَقْدِمُ لَكَ الْمُسَاعَدَةَ... دَائِمًا تَسْتَعِينُ مِنِّي، وَبَدَلًا أَنْ تَدْفَعَ لِي، تَشْتَرِي حِذَاءَ جَدِيدًا... وَخَفِضَ بَصَرَهُ وَهُوَ يَغْتَدِرُ: أَنْتَ لَا تَذْكُرُ مَقْدَارَ الْحُجَلِ الَّذِي أَشْعُرُ بِهِ، وَأَنَا أَنْ تَعْلَمُ حِدَائِي هَذَا... أَنْظُرْ... إِنَّ أَصَابِعَ قَدَمِي تُظْهَرُ مِنْهُ.. وَلَمْ يَنْظُرْ صَاحِبُ الدُّكَانِ إِلَى قَدَمَيْهِ، بَلْ كَانَ يُلْقِي عَلَيْهِ نَبَأَ أَطَارَ صَوَابِهِ: لَنْ تَأْخُذَ الْحِذَاءَ الْجَدِيدَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تُؤَدِّيَ مَا عَلَيْكَ مِنْ ذَيْنَ... وَاشْتَدَّ غَضَبُ عَبَّاسٍ، وَهُوَ لَا يُصَدِّقُ مَا سَمِعَهُ: لَا تَقُلْ ذَلِكَ... لَا شَكَّ أَنَّكَ تَمْرُخُ مَعِيَ... قُلْ لِي أَنَّكَ تَمْرُخُ مَعِيَ فَقَطْ... هَاتِ الْحِذَاءَ، أَنَا لَا أَقْبَلُ مَزَاحًا مِنْ هَذَا النَّوعِ، وَرَفَّ صَاحِبُ الدُّكَانِ الْحِذَاءَ الْجَدِيدَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَدَخَلَ بِهِ نَحْوَ خِزَانَةِ حَدِيدِيَّةٍ حَيْثُ فَتَحَهَا، وَرَمَى بِهِ دَاخِلَهَا، لِيَسْتَقَرَّ بَيْنَ الرَّهَائِنِ الْآخَرَى، وَرَجَعَ إِلَى عَبَّاسٍ يَقُولُ لَهُ: إِنَّهُ فِي مَأْمَنِ، وَلَنْ تُخْشَى عَلَيْهِ مِنَ السَّرِقَةِ إِنَّهُ دَاخِلَ الْحَدِيدِ... وَأَجَابَهُ عَبَّاسٌ وَهُوَ يَكْتُمُ غَيْظَهُ: وَلَكِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْتَعِلَهُ... فَأَجَابَهُ صَاحِبُ الدُّكَانِ بِسُرْعَةٍ: عِنْدَمَا تُؤَدِّي ذَيْنَكَ. ثُمَّ أَهْتَمَّ بِزَيَّائِهِ...

محمد إبراهيم بوعلو، المجموعة القصصية السقف، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1975، المغرب، ص 148 وما بعدها، بتصرف.